في الطريق الى السويس: خمسون عاما على العدوان (3)

ناصر كان معجبا بالغرب وامريكا وانفتاحها ومشمئزا من البريطانيين الاستعماريين واستعلائهم

صوت العرب انهت احتكار البريطانيين للاعلام.. وطلب ايدن وقف الحملة الاعلانية اعتراف ببروز ناصر

سعيد ابو الريش*

تنشر «القدس العربي» بمناسبة مرور خمسين عاما على ازمة السويس مقتطفات من كتاب الباحث الفلسطيني سعيد ابو الريش «ناصر: آخر العرب» الذي صدر بالانكليزية (2004) وترجم للعربية، خاصة الفصول المتعلقة بجذور ازمة السويس واندلاعها لعدوان ثلاثي، وتداعياتها.

■ في ايلول (سبتمبر) 1955 كانت الكرة في ملعب الآخر. فقد سافر رئيس الوزراء العراقي، نوري السعيد، واكثر العرب اخلاصا ووفاء للغرب، في رحلة الى القاهرة لاقناع عبد الناصر بحكمة الانضمام الى الحلف، وتحدث من دون خجل كيف ان العرب لم يستطيعوا فعل شيء من دون اصدقائهم البريطانيين. ولم يكن بمستطاع الرجلين ان يكونا اكثر اختلافا، سياسيا وشخصيا. فقد كان اعجاب عبد الناصر بأشياء غربية مرتبطا بامريكا وانفتاحها ودعمها المعتاد للحركات الوطنية، ولكنه كان مشمئزا من البريطانيين الاستعماريين وأساليبهم الاستعلائية، بينما كان احساس نوري السعيد عكس ذلك، فقد كان يجد الامريكيين بسطاء، وأزعجت مثاليتهم احساسه بالاستمرارية التاريخية استنادا الى الطبقة. كان عبد الناصر يحب لقاء الناس وجها لوجه، وكان متعاطفا مع الموسيقى الشعبية، ويأكل الطعام المحلي، ويتمتع بسلوك مصري ودود ينعكس في ابتسامته العريضة المؤثرة. اما نوري السعيد، نصف التركي ونصف الكردي، فهو خطيب عام، قاس يكره الناس، ويتعاطى الويسكي، وكان يقيم في منزله في لندن اكثر من اقامته في بغداد، ويلبس سترات مفصلة في «سافيل راو». وفوق ذلك كله، فان الموقف من الناس هو الذي فصل بينهما. فقد كان عبد الناصر يؤمن بهم، ويضع افكارهم في حسبانه، اما نوري فقد كان يشك في اي شيء وأي شخص يحبه الناس.

اضاف الاجتماع المتوتر الى بقية المشاكل العالقة بين العراق ومصر. ومنذ ذلك التاريخ وصاعدا اصبحت قائمة مبررات عبد الناصر لرفض الحلف تعكس مشاعره تجاه نوري السعيد، ولم يسامح نوري من جانبه الشاب اليافع على انهاء اجتماعهما في اقل من ساعة. واستاء عبد الناصر من خضوع نوري السعيد الواضح لأي شيء غربي، ورأى فيه رجلا يمثل خطرا على قيم ثورة 23 تموز (يوليو). وقد قادت عقلية عبد الناصر المتشككة، وفي الغالب فانه كان محقا في ذلك، الى احتمال ان نوري ربما يستغل علاقاته الخاصة مع الغرب لانتزاع القيادة العربية من مصر. وطغى عامل من يقود العرب على العلاقات بين البلدين لعقود عديدة من الزمن. واصبح الوضع اسوأ في هذا الشأن عقب الاجتماع المذكور.

وبعد ان حل البريطانيون لاحقا محل الامريكيين كقادة للغرب في الحلف، رفض عبد الناصر عرضا كان من شأنه ان يؤدي الى تجاوز العقبة بان تلعب مصر دورا يلي الدور العراقي. واقترح البريطانيون ضم مصر الى التحالف كقائدة للعرب، وان يدخل عبد الناصر في حلف مع تركيا بافتراض علم تركيا بالامر، الامر الذي يؤدي بدوره الى اعتبار البلدين عضوين مؤسسين وقطبين للحلف المقترح. لكن معارضة عبد الناصر للتحالفات العربية مع السلطات الاجنبية كانت معارضة مطلقة. وقد اوردت د. هدى عبد الناصر التبرير الوحيد المقبول لذلك السلوك. فأشارت الى ان والدها كان «معارضا لاي تحالفات بين الدول القوية والضعيفة، وذلك لانها حتما ستؤدي الى ان يفرض الطرف القوي سيطرته على التحالف، ويملي اجندته الخاصة على الطرف الضعيف». وهذا ما يفسر بالضبط سلوك عبد الناصر ومعارضته للحلف.

في العاشر من شباط (فبراير) عام 1955 توقف انتوني ايدن، وكان لا يزال وزيرا للخارجية البريطانية آنذاك، في القاهرة وهو في طريقه الى بانكوك لحضور اجتماع منظمة حلف جنوب شرق آسيا، وهو احد التحالفات المدعومة من الغرب. واجتمع بعبد الناصر، وكان ذلك الاجتماع الوحيد بين الاثنين، والتقطت لهما معا عدة صور فوتوغرافية اثناء لقائهما لتناول طعام العشاء في السفارة البريطانية. كان ايدن بقامته الطويلة يبدو انيقا ومتحضرا وهو يرتدي ملابس السهرة، وجاهزا لمواجهة كاميرات التصوير، بينما كان عبد الناصر يرتدي ملابس «الكولونيل» العسكري، مع ربطة العنق، بخلاف ما جرت عليه العادة، مبتسما ربما ابتسامة عريضة اكثر، وايماءة قطعا كانت نبيلة في رأي ايدن، وهو يشد على يد وزير الخارجية البريطاني مصافحا. وكانت الايماءة الودودة العربية الخالصة بمثابة رسالة الى اي مصري شاهدها. فالامساك بالايدي دليل على احساس الطرفين بالود والندية، وغير وارد بين اطراف تسود بينهما العداوة والفوقية وعدم الندية. وكانت بالتأكيد ايماءة تعبر عن النيات الحسنة. فقد كانت اتفاقية الجلاء من السويس قد تم توقيعها آنذاك، وظلت مسألة رغبة البريطانيين الدخول مع المصريين في حلف عسكري عالقة. ولم تصبح هذه القضية مشكلة الا في ما بعد، عندما جعل ايدن الامر يبدو وكأنه يفرض على مصر الالتزام بالتبعية لبريطانيا. وكان من الواضح لكل من شاهد الرجلين معا استحالة التوصل الى تسوية بين السلوكين السياسيين المتناقضين اجتماعيا. كما لم تتمكن الصداقة الشكلية المصطنعة من اخفاء الاختلافات الواضحة في مدى ادراكهما لأهمية ما يحدث في الشرق الاوسط. ووفقا للصحافي محمد حسنين هيكل وآخرين، فقد غنى ايدن تمجيدا للبدو بأسلوب مستشرق رومانسي، بينما لم يدرك عبد الناصر لماذا اعتقد ايدن بأهمية البدو. لكن اول المشاحنات الجادة بين الرجلين حدثت لاحقا.

رسالة الى ايدن

وعلى ارض الواقع، فقد ارسل ايدن الى عبد الناصر مساء 5 نيسان (ابريل) 1955، وهو اليوم نفسه الذي اصبح فيه رئيسا للوزراء، خطابا سريا متعهدا فيه بوقف محاولات كسب المزيد من الاعضاء العرب الى حلف بغداد بجانب العراق، مقابل تعهد مصر بوقف الحملة الدعائية المضادة تجاه الحلف. ووقع العراق الحلف مع تركيا في 14 شباط (فبراير) على ان تكون احتفالات مراسم التوقيع في ايار (مايو)، كما اعلنت كل من ايران وباكستان عن نيتهما الانضمام الى الحلف في اقرب وقت ممكن، بينما لم تنضم اليه الولايات المتحدة نفسها، القوة المحركة الاساسية في تأسيسه، خوفا من اغضاب العربية السعودية. وقد اتفقت الولايات المتحدة وبريطانيا على ان تكون الاخيرة هي القائد الغربي في الحلف. وكانت المعارضة السعودية الحلف تستند الى معارضة وضع العراق في الحلف، اكثر من كونها معارضة لتحالف ضد الشيوعية، حيث كان هناك تنافس بين الهاشميين الذين يحكمون العراق والأسرة المالكة في السعودية. وفي واقع الأمر، فان خوف وفزع العربية السعودية من الهاشميين في العراق والاردن، ودعم الغرب لهما، ادى بها الى تأسيس علاقات ودية قوية وسبل تعاون مع مصر.

وتمثل رسالة ايدن المذكورة اول التحالفات الودية والهامشية الكثيرة التي كان عبد الناصر طرفا فيها عدد من السنوات. وقد جاءت كل تلك التحالفات غير ناضجة بسبب خلافات فلسفية اساسية بين عبد الناصر واغلبية الحكومات العربية، وهي الدول التي لا يؤمن رؤساؤها بنمط المبادئ الشعبية التي يؤمن بها عبد الناصر.

كان السبب وراء حاجة ايدن الى عقد اتفاق سري مع عبد الناصر بشأن حملته الاعلامية المضادة هو ان استخدام البث الاذاعي القوي لراديو القاهرة: «صوت العرب»، وهو واحدة من الموجات الاخبارية التي كان يرعاها عبد الناصر، والموجه الى العرب في كافة انحاء الشرق الاوسط، قد قاد الى انهاء احتكار البريطانيين للاعلام في الشرق الاوسط. وكانت اذاعة «صوت العرب» تقدم تغطية في جميع ارجاء العالم العربي بشكل اضخم بكثير من تلك التي تقدمها الاذاعة البريطانية المنافسة: «اذاعة الشرق الادنى»، وخصوصا ان عبد الناصر كان معروفا اكثر في وسط قطاعات واسعة من المثقفين العرب، بما في ذلك العراقيون. ولم يكن راديو عبد الناصر اكثر من كونه جهازا اقليميا متخصصا في تزويد العرب بالاخبار باللغة العربية، ولكن بنبرة قومية عربية، ولذلك كان «صوت العرب» اسما على مسمى. وفي واقع الامر، كانت هناك موسيقى عسكرية تعمل في خلفية برامجه، وكانت رسالتها موجهة ضد الاستعمار، ومن أجل حقوق وكرامة كل العرب. وقد اصبح الاذاعي احمد سعيد، المحرر والمعلق الرئيسي في صوت العرب، من اكثر الرموز الشعبية شهرة في منطقة الشرق الاوسط. وكانت الرسالة الخاصة بحلف بغداد اقوى من العادة، فقد كانت تدعو الشعب العربي الى الثورة ضد الحلف واسقاط نوري السعيد. ووفقا لاذاعة صوت العرب، لم يكن حلف بغداد اكثر من مجرد استعمار متنكر. لماذا ينبغي على العرب الانضمام الى حلف مناهض للشيوعية، بينما يستمر العدو الاسرائيلي في مهاجمة المواقع في غزة والضفة الغربية؟ وهي رسالة سهلة الفهم، وحازت على قدر كبير من الاعجاب.

حملة ناجحة ضد حلف بغداد

وصل الى علم ايدن ان حملة عبد الناصر الاعلامية المناهضة لحلف بغداد كانت ناجحة. وكان طلب ايدن بايقاف الحملة الاعلامية اعترافا اساسيا، ان لم يكن تسليما صريحا ببروز الدور القومي العربي لعبد الناصر. وهو اعتراف بان رسالة عبد الناصر تسببت في المتاعب لاصدقاء الغرب، خصوصا اولئك الذين انضموا الى حلف بغداد، او يميلون الى الانضمام اليه. وليس من المبالغة القول، وبحسب ادعاء مصر في ما بعد، ان ايدن لم يكن ينوي الالتزام بدوره في الاتفاق. ولذلك، استمرت جهوده لاضافة الاردن ولبنان الى الحلف حتى بعد ان نكث بوعده، وخرق تعهده، وساهم في فضيحة السويس من خلال قانونه الخاص. وليس معروفا ما اذا كان ايدن قد قصد تضليل عبد الناصر، لكن ما فعله في آخر الامر لم يكن سرا ابدا. ولم يحاول مطلقا ان يجعله كذلك. فقد كانت محاولات ايدن توسيع قاعدة العضوية العربية في حلف بغداد تتم علنا. فقد كانت محاولات ايدن توسيع قاعدة العضوية العربية في حلف بغداد تتم علنا. اضافة الى ذلك، فان البريطانيين، وقد تبعهم الامريكيون في ذلك لاحقا، اجروا اتصالات ودية مع الاخوان المسلمين، وهي الجهة الوحيدة التي تمتلك اتباعا على مستوى الشارع، بما كان يعتقد انه يكفي لتغيير تفكير عبد الناصر. وعلى الرغم من دعم الاخوان المسلمين لكافة الجهات المناهضة للشيوعية، رأى البريطانيون في حركة الاخوان المسلمين وزنا معادلا لعبد الناصر، الزعيم المصري الذي ثبت انه راسخ. وللحكم على الوضع بكامله، فانه يجب التذكير بان عبد الناصر قد بدأ مرحلة جديدة في تاريخ الشرق الاوسط، مرحلة تدعو صراحة الى معارضة الانماط الغربية في التحكم غير المباشر على المنطقة. وحين اصبح ذلك واضحا وبرز على السطح، اصبحت المجابهة بين الطرفين امرا محتما، وتسارعت الاحداث الى الحد الذي خرجت فيه عن سيطرة الطرفين.

اتخذ عبد الناصر، الى جانب معارضته لحلف بغداد، قرارا اخر ضد الاستعمار الفرنسي. فالحق قراره الذي اتخذه في العام 1954 بتدريب الجزائريين بآخر يمنحهم بموجبه بعض المساعدات المالية. وكان يتعامل بمثابة الراعي مع جبهة التحرير الوطنية الجزائرية، وهي حركة تحرير وطنية سعت لتحقيق الاستقلال عن فرنسا.

وكان الحدث الرئيسي الذي غير من توجهات عبد الناصر واحالها من خطوات «مؤقتة» معادية للاستعمار الى سياسة اقليمية، وادى الى مواجهة مع البريطانيين والفرنسيين وحل محل سياسات مصر الاصلية قد وقع في مؤتمر باندونغ (الافريقي الاسيوي) في اندونيسيا، واثناء زيارة ايدن العابرة الى القاهرة المذكورة سلفا، وكان قد تقرر بالفعل انعقاد المؤتمر خلال الفترة من 18 ـ 24 نيسان (ابريل) 1955. ونظرا الى ان الجميع توقع للمؤتمر الفشل، لم يتم ادراجه في مناقشات اجتماع ايدن وعبد الناصر. لحن المؤتمر جاء نصرا للدول التسع والعشرين التي حضرته، فقد تمكن المؤتمرون من تبني عشرة قرارات مناهضة للاستعمار. وقد حضر القادة: نهرو ممثلا للهند، وسوكارنو عن اندونيسيا، وتيتو عن يوغسلافيا، ونكروما من غانا، وشوان لاي ممثلا للصين. ومثل الذين حضروا من الزعماء اكثر من نصف البشرية. وكان ذلك ايضا اول حضور في مؤتمر عالمي للرجل الانيق الطويل القامة والمبتسم دائما جمال عبد الناصر.

الاتصال بالسفير السوفييتي

ليس هناك من امر اكثر دلالة على التغيير الجذري في شخصية عبد الناصر من تمكنه من آخر الامر من الحصول على الاسلحة من مصدر غير غربي. وعملا بنصيحة شوان لاي، فقد عمد عبد الناصر فور عودته الى القاهرة الى الاتصال بسفير الاتحاد السوفييتي دانيال سولود، وطلب اليه ان يقوم الاتحاد السوفييتي بتزويد مصر بالسلاح. وكان الرد بالايجاب، ونظرا الى انها كانت خطوة رئيسية، كان لا بد من ان تتم بدقة. ففي حزيران (يونيو) وبينما كان عبد الناصر لا يزال تحت تأثير اعجابه بامريكا، ويرغب في حدوث تغيير في مشاعرها تجاهه، اخبر عبد الناصر سفير الولايات المتحدة لدى مصر هنري بايرود بأنه يفكر في شراء اسلحة من الاتحاد السوفييتي لكن بايرودا لم يصدقه، واعتقد بان عبد الناصر «يهوش». اما بالنسبة الى المصريين الذين كانوا على علم بما كان يجري، فقد كانت تلك نقطة حرجة، فالذي سيبيع عبد الناصر الاسلحة سيصبح صديقا. ومع خلفية التهديد الاسرائيلي بفتح خليج العقبة امام حركة السفن الاسرائيلية بالقوة، كشف عبد الناصر في ايلول (سبتمبر) 1955 عن الخبر الذي كان معروفا منذ فترة زمنية للاستخبارات الغربية، وهو صفقة سلاح مصرية ـ تشيكية. فقد حدد الاتحاد السوفييتي تشيكوسلوفاكيا لتنفيذ الاتفاق، بينما يقوم عبد الناصر بتأمين القطن الى الصين للحماية ضد انتقام الغرب المتمثل في مقاطعة المنتجات المصرية.

كانت تلك عبارة عن مغامرة ضخمة، فقد كانت اول تعاقد لشراء اسلحة من المعسكر الشرقي بواسطة دولة غير شيوعية. وقد اسعد ذلك الجماهير العربية المحبطة، وكان ذلك اضعافا لحلف بغداد واي تحالفات اخرى للدول العربية مع الغرب، وقد قوض خطط الغرب الدفاعية. كما كانت تلك الصفقة صفعة للغرب وعملائه، والتزاما تجاه الفلسطينيين ادخل الفرحة في نفوس الجماهير العربية اينما كانت. ووجه ايدن ووزارة الخارجية في لندن اصابع الاتهام الى الامريكيين، واعلنوا في ايلول (سبتمبر) مبادرة لحل النزاع العربي ـ الاسرائيلي. وقد ارسلت الولايات المتحدة، ولكن بعد فوات الاوان، عدة مبعوثين، من بينهم صديق ايزنهاور الشخصي ووزير الخزانة السابق روبرت اندرسون (وهو رجل سيلعب دورا مهما خلف الكواليس في وقت لاحق)، للطلب الى عبد الناصر الغاء الاتفاق. واستغلت اسرائيل الاحداث للتقرب اكثر من الغرب. كانت هناك اعلانات وتهديدات مبطنة، وعروض تسليح سرية، من كيم روزفلت موظف وكالة الاستخبارات المركزية، ومحاولات اقناع اخرى، لكن عبد الناصر لم يتزحزح عن موقفه. وعندما هدأت العاصفة، وجد الغرب والعالم امامهم عبد الناصر اخر، عبد الناصر الذي احبه العرب بسبب وقفته في وجه الغرب، اكبر من رجل انقاذ، يقود عملية لكسر احتكار الغرب لتجارة السلاح. بالنسبة الى الغرب، اصبح عبد الناصر، وبخلاف صديقهم نوري السعيد، يمثل تحديا مراوغا ومتملصا. لكن الغرب لم يكن قد تمكن حتى ذلك الوقت من الاتفاق على ماذا سيتم بشأنه.

تداعيات صفقة الاسلحة

بدا ان نتائج صفقة الاسلحة تتضاعف تداعياتها بسرعة خلال الفترة الممتدة من تشرين الاول (اكتوبر) الى كانون الاول (ديسمبر) 1955. فقد وصف وزير الخارجية جون فوستر دالاس صفقة الاسلحة المصرية التشيكية قائلا: «انها اخطر التطورات منذ الحرب الكورية».

ونظرا الى ان اسرائيل كانت دائما على أهبة الاستعداد للافادة من انشغال عدوها بأمور اخرى، فقد فجرت موقفا جديدا في العوجة. وقد تنافست روسيا مع الغرب في مجال آخر، ومع علمها بالمفاوضات المتعلقة ببناء المرحلة الثانية من خزان السد العالي، فانها قدمت عرضا بتمويله. اعطى ايدن خطته المهينة للسلام لتسوية النزاع العربي ـ الاسرائيلي طابعا رسميا في التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) 1955 في حديث له في غيلدهول. كما اكدت الولايات المتحدة وبريطانيا والبنك الدولي عرضها الذي كان قيد التجهيز والاعداد لما يزيد على العام بتمويل كامل المرحلة الاولى من بناء السد العالي بمبلغ 400 مليون دولار من اصل 1,3 مليار دولار. وهو عرض لم يكن باستطاعة اي جهة اخرى مضاهاته، وبالتالي لم تكن هناك اية محاولة للمنافسة.

وقد تسببت غارة اسرائيلية على سورية في انهاء خطة ايدن المهينة للسلام، وايضا انهاء اي فرصة متاحة للتعاون بين سورية والاردن واسرائيل في المشاركة في مياه نهر الاردن. وقام الجنرال السير جيرالد تمبلر رئيس هيئة الاركان الملكية، وفي خرق واضح للتفاهم المبرم بين ايدن وعبد الناصر الخاص بتوسيع حلف بغداد بزيارة لعمان بغرض دفع الاردن الى الانضمام الى الحلف. واندلعت احداث شغب من قبل مشجعي عبد الناصر المناهضين للبريطانيين في الاردن احتجاجا على هذه الخطوة، الامر الذي دفع بالملك حسين الى الاعلان بأن الاردن لن ينضم الى الحلف.

عاد روبرت اندرسون سريعا الى المنطقة في محاولة لربط العرض الامريكي الخاص بالمساعدة في تمويل السد العالي بالنزاع العربي ـ الاسرائيلي. لكن كانت نتيجة محاولته بجعل عملية التمويل مرهونة باحراز تقدم في مسار بحل الخلاف العربي ـ الاسرائيلي هي الفشل. كان عبد الناصر في تلك الاثناء يقوم بجملة من التحركات سعيا وراء تحقيق احد نتائج مؤتمر باندونغ، وهو الاعتراف بالصين الشعبية. ولتسويق تلك التحركات للجماهير العربية، فقد تنامت آلته الدعائية اكثر فأكثر ملحقة مزيدا من الضرر بموقف الغرب في الشرق الاوسط. وبينما كان يعتقد بان صفقة الاسلحة التشيكية وفرت له وسائل الدفاع عن نفسه، رأى سواه بأنها انما تعني مجابهة حتمية مع اسرائيل. وكان يتوجب على عبد الناصر معرفة تلك الحقيقة، لكنه مرة اخرى كان يستجيب لصوت الجماهير التي كانت تطالب، في تلك الحال، بجيش قوي قادر على مواجهة اسرائيل. وهكذا، فانه لم يكن يتحرك من فراغ. ولأسباب مختلفة تماما، وفي بعض الاحيان عكسية، رغبت اسرائيل والولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفييتي وبقية البلدان العربية دخول عبد الناصر الحرب.

المعركة مع نوري السعيد

باستثناء الرغبة في بناء السد العالي في أسوان (وحتى ذلك كان له جانب دولي قوي) في نهاية عام 1955، فان عبد الناصر كان مشغولا بمواجهة معارك داخلية. فقد كانت المشكلة الفلسطينية كامنة في العمق، ولكن عبد الناصر كرس معظم وقته لمعارضة حلف بغداد من اجل منع نوري السعيد في العراق من استخدامه للسيطرة على الشرق الاوسط، وقد دعم الثوار الجزائريين، وتأكد من ان لا شيء يقف في طريق تحقيق صفقة السلاح مع الكتلة الشرقية. ودافع مع تيتو ونهرو وعدد آخر من قادة عدم الانحياز عما دعي «الحياد الايجابي»، بما جعل من القاهرة المركز التعليمي الذي لا ينازع في العداء للاستعمار بالنسبة الى الطلاب العرب والافارقة، واستخدم آلته الاعلامية القوية لتوجيه نداءات الى الشعب العربي للتخلص من الاستعمار الجديد ومأجوريه، اي حكامه.

وقد انسجمت كل هذه النشاطات مع فكرة عبد الناصر الرئيسة الواسعة في البحث عن الكرامة. ومن المؤكد ان بناء السد العالي واستصلاح جزء من الصحراء وزيادة الاراضي المصرية الصالحة للزراعة بنسب الثلث من شأنها ان تعزز كرامة الفلاحين. لقد كان السد العالي مشروع حلم لعقود مضت، وقد جعل عبد الناصر بناءه الرمز الاكثر اهمية وشعبية لنظامه. ولكن كان هناك تأييد شعبي ضعيف للقضايا الخارجية. فبالنسبة الى معظم المصريين، لم تكن معارضة حلف بغداد حملة من اجل الكرامة، وقد عارضوها لان فلسطين كانت تأتي اولا. ولم تصبح مواجهة حلف بغداد قضية رئيسية الا بعد ان عرفها بعد الناصر بأنها لا تعني شيئا اكثر من كونها استعمارا مقيتا، وخطرا على المصالح العربية والكرامة. وببطء وتصميم، تحدث كعربي اكثر منه كونه استعمارا مقيتا، وخطرا على المصالح العربية والكرامة. وببطء وتصميم، تحدثت كعربي اكثر منه كمصري. وكانت اقواله تعبر عن موقفه الشخصي، وتجاهلت اراء رفاقه، ولم تنزل عند ارادة الشعب المصري. وفي كل مرة يفعل ذلك كان يتبعه بحملة لتعزيز الافكار التي يتبناها.

وكان تبني موقف مؤيد لقضية الثوار الجزائريين اقل صعوبة، فالمصريون كانوا في الاساس متعاطفين مع اخوانهم العرب. ولكنه مع ذلك كان خطوة معتبرة على اية حال، لانه دل على التزام تجاه العرب ابعد من فلسطين. وكمعارضة الحلف، فان اتخاذ خطوة معادية للفرنسيين، ومؤيدة للقضية الجزائرية كانت مشروعا مكلفا يمكن تجنبه. ولكن عبد الناصر اعتقد ان الهدف يستحق الغالي والنفيس، ذلك ان الحفاظ على حرية العرب تأتي في قمة الاعتبارات العملية. وقد استخدمت الطريقة نفسها في مهاجمة الوجود البريطاني في الجزيرة العربية. وبكل تأكيد، فان هذه الخطوات، وبشكل خاص تولي موقف قيادي تجاه المشكلة الفلسطينية، كانت لها تبعات مالية سلبية على مصر. ومرة اخرى، فانه بالنسبة الى عبد الناصر، فان تلك كانت مواقف عربية ولا تخضع لاعتبارات اقتصادية. فلقد اصبح معروفا عنه انه يتخذ مواقف تتسم بالعداء لحلف بغداد، ودعم استقلال الجزائر وجنوب الجزيرة العربية، والوقوف الى جانب القضية الفلسطينية. وهكذا وقف عبد الناصر بمفرده ضد بريطانيا وفرنسا واسرائيل.

وفي داخل مصر تم كسب المعركة ضد نجيب. ولكن لم تكن هناك طريقة لهزيمة الاخوان المسلمين، مع ان الآلاف من اتباعها والعشرات من قادتها، بمن فيهم المنظر العقائدي الرئيس سيد قطب، جرى سجنهم، وبنيت معسكرات للسياسيين المبعدين. وكان العمل على قمع الاخوان المسلمين قد جاء بنتائج مثمرة بعد محاولة اغتيال عبد الناصر، وتواصل خلال استمرار عبد الناصر في الحكم لثمانية عشر عاما. وبشكل مغاير للحزب الشيوعي، وعلى الرغم من ان عبد الناصر استخدم المؤسسة الاسلامية التعليمية، جامعة الازهر، ليقلل من رصيد الحركة، فان الاخوان المسلمين لم يتوقفوا ابدا عن العمل. وفي الحقيقة، فان الاخوان المسلمين طوروا هيكلا اقليميا، واخذوا يعملون من اقطار عربية اخرى. وكانت الجماعة كبيرة بما فيه الكفاية، ومنظمة ايضا بما يكفي لكي تصبح نقطة جذب للمصالح الاقليمية والخارجية الراغبة في التأثير في الاحداث في الشرق الاوسط.

واضافة الى ذلك، فان الولايات المتحدة بدأت تميل باتجاه التعاون مع مجموعات الاصوليين الاسلاميين، لانهم رأوا فيه عاملا يساعد على تأسيس تحالف معاد للشيوعيين في الدول الاسلامية. واحيانا كانوا يفكرون في ما اذا كان ممكنا استبدال عبد الناصر، مع ان الامريكيين لم يتمكنوا ابدا من صناعة قرار اخير حول هذا الموضوع.

واثناء ذلك، فان رفاق عبد الناصر في الحكومة استمتعوا بالاستيلاء على المناصب العليا دون ان يبدوا اهتماما كبيرا ابعد من توظيف اصدقائهم وتوسيع قواعد نفوذهم الواحد ضد الآخر. ولم يطفح على السطح فساد كالذي كان سائدا ابان حكم فاروق، ولكن الضباط القدماء عاشوا بشكل جيد، ولم يهتموا الا قليلا بالامور الاخرى. وكان هناك بين فينة واخرى شجارات تتعلق بمجالات النفوذ الفردي، ولكن عبد الناصر لم تكن لديه مشكلة في السيطرة عليهم. وقد استمر في السير على الطرق نفسه، وانتصر على الضباط الاصدقاء من خلال قوة شخصيته المطلقة، او بتبني سياسات وطلب الموافقة عليها بعد ان تغدو امرا واقعا. وفي الغالب كان يأتي اليهم بعد ان يكون هو وحكومته قد تبنوا السياسات وجعلوها شعبية. وبطبيعة الحال، فان عامر الموثوق فيه كان هو المسيطر على الجيش. وبعد الاخوان المسلمين، فان الجيش كان هو المصدر المحتمل الثاني للمعارضة. وقد بقي عامر مصدر عبد الناصر للمعلومات حول العالم الخارجي. وكانت الافكار بشأن الاتحاد القومي (الذي اعقب هيئة التحرير)، ومجلس الامة الذي هو في نظام الحزب الواحد شكل شبيه بهيكل برلماني يرعى شؤون العمال والفلاحين، وبذلك منحهم 50 بالمئة من المقاعد، قد تبلورت في عقل عبد الناصر، وفي الغالب نوقشت مع الاعضاء الآخرين في مجلس قيادة الثورة، ولكنها لم تكن قد تم تبنيها بعد. وعموما، فان الميول الاصلية باتجاه اعادة تأسيس الديمقراطية كانت آخذة في التلاشي، لان عبد الناصر كان يعتقد ان البلاد يمكن ان تعود الى فسادها السابق ذاته، وايضا لانه استمتع بمكانته كمتحدث باسم كل العرب.

القائد يسيطر على كل شيء

وكان اهم التطورات الداخلية هو ما حدث بعد صدور دستور جديد واجراء انتخابات رئاسية اعد لها لكي تتم في حزيران (يونيو) عام 1956. ولكن عبد الناصر كان في عام 1956 قد اصبح بالفعل قائدا بين متساوين، وكان كل شيء تحت سيطرته. وقد واصل رفاقه القدماء تراجعهم الى البيروقراطية. وهذا هو السبب في انه لم يوجد شخص آخر ارتبط اسمه بأزمة السويس، وبحرب السويس. ومهما تكن التغيرات التي جرت في شخصية عبد الناصر بين عام 1952 الى نهاية عام 1955، فانها كانت سياسية اكثر مما هي شخصية. فقد كان النظام الحكومي الوحيد الذي بالمستطاع تصوره هو ديمقراطية يشرف عليها الجيش، باعتبار ان صيانة الجيش هي اساس التأييد الجماهيري له، ولكن بسبب خوفه من اختراق اسلامي وشيوعي في الجيش، فانه ابعده عن الاضواء ووازن قوته عن طريق خلق صورة شعبية محددة لنفسه. ولم يكن قد فصل ابدا بشكل واضح ضمن خطوط في فلسفة الثورة او حقيقة الشيوعية. لقد تضمنت تأسيس عبادة شخصية لنفسه وتهميشا لكل رفاقه باستثناء عامر.

بكلمات اخرى، فان عبد الناصر وضع عامر والجيش جانبا، ولكن كل مهمات ادارة الدولة كانت تحت سيطرته. وقد عمل رفاقه كتابعين له، كوزراء ومساعدين ونواب ومندوبين، واشكال زخرية. لقد اشاع بنظره بعيدا بينما انغمس بعضهم بصورة شخصية في انواع فساد صغيرة، وهو الامر الذي تجنبه من جانبه، حتى ان زكريا محي الدين الحاد الذكاء كان سعيدا برئاسته لهيئة جهاز الامن، بينما ذهب صلاح سالم الى ابعد من ذلك، فقام بعلاقة غرامية مفضوحة مع اخت الملك فاروق الاميرة فوزية.

واخذ عبد الناصر يرتدي بدلات رمادية مفصلة بشكل جيد، وقد احب ربطات العنق وكان لديه منها 250 ربطة، جميعها مقلمة ورصينة. ولكنه لم تكن لديه رغبة في المال، وكان يعمل ثماني عشرة ساعة يوميا. وقبله كل فرد، ولهم الحق في ذلك، على انه السيد النظيف. وحافظ عبد الناصر على ارتباطه بالاحداث العالمية من خلال قراءة جميع الصحف اليومية المتوفرة له، حتى الاجنبية منها. وفي السابعة والثلاثين من عمره كان بناؤه الجسماني لا يزال بحضوره القوي المهيب.

ولكن الفضل يعود الى ممارسته العرضية للعبة التنس، ولم تحصل له اي زيادة في الوزن. وقد استمر في العيش في البيت المتواضع نفسه في حي منشية البكري، على رغم انه شيد غرفة اضافية. ولم يكن يحس ابدا بالراحة عندما يعمل في القصر، واستمر في تناول صحون الاطعمة المصرية، مثل الجبن الابيض والفول والطعمية والملوخية، حتى ان طريقته في تحية الاخرين كانت طبيعية جدا، فقد كان يرفع يديه مشيرا بالطريقة البلدية عندما يرد التحية. واذا تركنا جانبا رغبته في التحكم في كل امر وعدم قدرته على التفويض، وهو العيب الوحيد الذي لم يغيره، فانه كان يدخن اكثر من ثلاث علب من السجائر يوميا (وقد غير من الصناعة البريطانية «كرافن أ» الى الامريكية ال. ام».

وعلى غير طريقة معظم زملائه الضباط، احتفظ عبد الناصر بابنائه في المدارس العامة، ولكنه كان يعود الى البيت بعد الظهر ليلعب معهم ويشارك في ما كان يهمهم ومتابعة شؤونهم. اما زوجته تحية فانها كانت تكرس جهدها تماما لاطفالها الخمسة، ونادرا ما كانت تشاهد، كما ان معظم المصريين لا يتذكرون انهم رأوها تسير في الشارع. ولم تكن تلك الحالة مرتبطة بحالة دينية. ولكن فقط لانها ليست من النوع الذي يحب الاختلاط بالناس. وغالبا ما يأتي رفاق عبد الناصر القدماء لزيارته في المنزل لمناقشة شؤون الدولة، والبعض الاخر كان يمكث ويتناول عشاء عاديا جدا، وكانت نادرا ما تنضم اليهم. والشخص الوحيد الذي كان يأتي الى منزل عبد الناصر ويذهب دائما من دون رسميات هو عبد الحكيم عامر. لقد كان يتصرف كأي عضو في العائلة، ويلعب وعبد الناصر الشطرنج بين فينة واخرى.

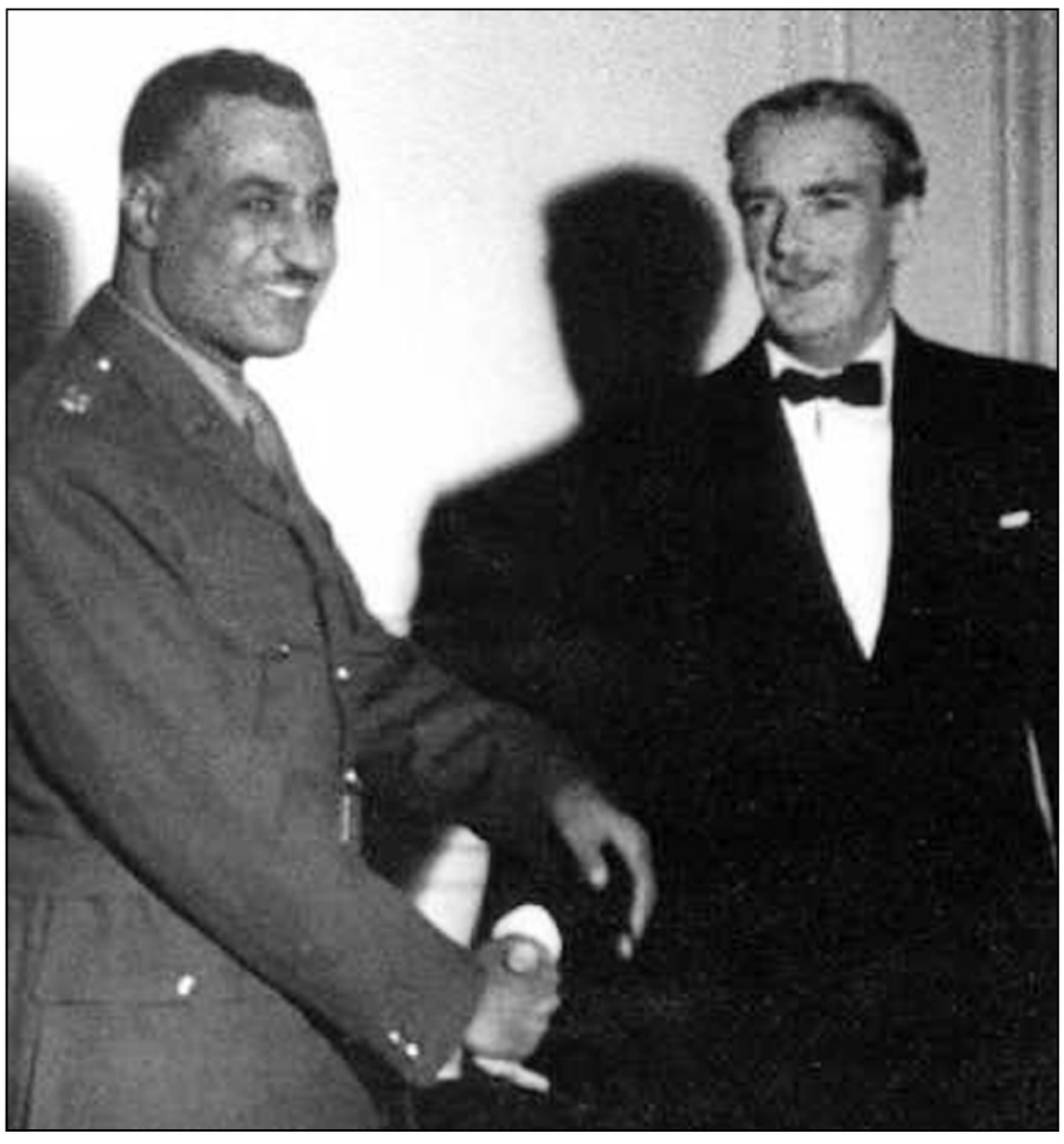

اللقاء الوحيد بين انتوني ايدين وجمال عبد الناصر

* كاتب وصحافي فلسطيني يقيم في فرنسا